International Journal for Scientific Research (IJSR)

المجلة الدولية للبحوث العلمية

Vol. (3), No. (8) August 2024 الإصدار (3)، العدد (8)

الصحراء والغابة في قصيدة سيف الرحبي؛ ذاكرة الجفاف والرعب

فاطمة الشيدي

أستاذ اللغويات الأسلوبية المساعد، جامعة السلطان قابوس، سلطنة عُمان

shidif@squ.edu.om

ملخص

تشكّل الصحراء فضاءً نصياً عميقاً في قصيدة الشاعر العمُاني سيف الرحبي، حيث ينبثق نصه من الذاكرة العربية القديمة بمحمولاتها النفسية والثقافية إضافة إلى استناده إلى المكان الذي ينتمي إليه (الجزيرة العربية)، وتشكل الصحراء جزءً أساسياً منه، ولذا فحضور الصحراء الطاغي في نصه يأتي عبر قاموس مكاني يتصف بالجفاف والقسوة من جهة، وبالحنين والتداعي والهيام من جهة أخرى.

لقد فرض الشاعر العماني الطالع من عمق الصحراء ورمالها المتحركة حضوره وصوته الشعري المتفرد والمتميز وراهن على خصوصية ذلك الحضور والصوت في الثقافة العربية، أما الغابة فقد اندمجت بوحشية ورعب كائناتها في النص حيث التوحش والقسوة وهكذا تمازجت رؤى الشاعر برؤيا القصيدة الكلية لتأثيث النص بممكنات من المؤثرات البنائية والتشكيلية والصورية والفكرية التي تستثمرها القصيدة في تحقيق الصلة بين النص والمتلقي وهو في حقيقته جزء مهم من بنية النص وقيمه التي تلتقي فيه مختلف الصياغات والانحرافات اللغوية والمفارقات الصورية، والتوازيات اللونية كالتضاد والتقابل والتكثيفات اللغوية والإيقاع الداخلي النفسي. وهذا ما تحاول هذه الدراسة الوقوف عليه لرصد صورة الصحراء والغابة في نص سيف الرحبي وبيان ملامحهما اللغوية وتشكيلاتها الفنية.

الكلمات مفتاحية: المكان، سيف الرحبي، الصحراء، الغابة، اللغة، الصورة، الرمز.

International Journal for Scientific Research (IJSR)

المجلة الدولية للبحوث العلمية

Vol. (3), No. (8) August 2024 الإصدار (3)، العدد (8)

The Desert and the Forest in the Poetry of Saif Al Rahbi: A Memory of Drought and Dread

Fatema Al Shidi
Asistant Professor of Stylistic Linguistics, Sultan Qaboos University, Sultanate of Oman
shidif@squ.edu.om

Summary

The desert represents a profound textual space in the writings of the Omani poet, Saif Al Rahbi. His texts emanate broadly from an ancient Arabian memory laden with rich emotional and cultural contents, and, more specifically, from the land to which he belongs, the Arabian Peninsula, of which the desert is a significant component. The dominant presence of the desert in his poems is expressed through a glossary of terms that convey rigidity and harshness, on the one hand, and nostalgia, crumbling and passion, on the other hand.

The imposing presence in Arabic literature of this Omani poet, with origins deeply rooted in the desert and its quick sands, is owed to his unique poetic style. Various linguistic formulations and visual contradictions, combined with the poet's internal rhythm of emotions, create composites of personal visions that coalesce to furnish the text with endless structural, decorative, visual and mental possibilities, paving the way for a connection between the text and its reader. As for the forest, its cruel presence in the text is felt mainly through its various wild creatures. This study is an attempt to trace the image of the desert and the forest in Saif Al Rahbi's poetry by identifying its distinct linguistic properties and artistic formulations.

Keywords: Place, Saif Al Rahbi, Desert, Forest, Language, Image, Symbol.

مقاربة عامة

يمتاح العمل الأدبي تصوراته ورؤاه من عدة منابع ورافد داخلية وخارجية، ومن تلك الروافد الفضاء المكاني النصي الذي يتخلق العمل الأدبي من رحمه، ويتلفع دثاراته عن قصديه أو عدمها. والفضاء النصي أو المكان هو المشيمة التي تربط بين النص والشاعر بحبل سري هو الذاكرة التي تتموضع فيها الصور والأحاسيس في بؤر لا محددة، ولا مرئية، ونسيج متشابك بين الذكريات والآنيات والحلم التي تمثل الثالوث الزمني الماضي والحاضر والآتي، والأبعاد المكانية الممتزجة بملح الذاكرة، وعرق المعاش، ثم ترفد المخيلة الشاعر بروافدها الواعية واللاواعية ليتمازجا وينعكس ذلك في نصه.

والمكان هو هوية النص، أو أحد الأشكال الانتمائية التي تربط المبدع بالنص، إنه أحد الوشائج التي تربط الداخل /الذاكرة، بالخارج /الحياة حيث إن تفاعل العناصر المكانية، وتضادها يشكلان بعداً جمالياً من أبعاد النص الأدبي، فالبحر والصحراء هما رمزان مكانيان متضادان، ولكنهما قد يتعانقان في ذهنية المبدع، وبذلك تتخلق الرؤى والصور المكانية المتخيلة؛ لتضيء النص بثيمات مكانية فيزيقية أو ميتافيزيقية.

والنحت المكاني في الذاكرة اللغوية، وتشكيله لأبعادها وعناصرها، غير خفي على كل دارس ومتأمل، وبهذا ظهرت اللهجات وتباينت اللغات، فلغة أهل السواحل ليست لغة أهل الجبال، أو لغة أهل السهول، بل حتى لهجة المكان الواحد تتباين قرباً أو بعداً من ذلك المكان. بل أن هذا الكائن بكليته يتأثر بالمكان والجغرافيا، لغة وفكراً وشعوراً، فأهل الصحراء ليسوا أهل المدن. وأهل الجبال ليسوا هم أهل البحر والشطآن، فالجغرافيا وما فيها من نبات وحيوان تنهج لساكنيها سنن معاشهم، وتكوّن الكثير من دواخلهم، فالطبيعة تعتمل في روح الشاعر وتنمّي الذوق، وتغذّي خيال الكتاب والشعراء، وإذا أخذنا الشعر الجاهلي مثلاً؛ فسنراه يقدم صورة صادقة لطبيعة البادية وحياة البدو، ولما انتقل العرب إلى الحواضر تغيّر الأسلوب الأدبي، فخصب الفكر، واتسع أفق الخيال، وتدفقت عواطفهم ورقّت ألفاظهم وسهلت، ولعلنا نذكر قصة ذلك البدوي (الشاعر علي بن الجهم) الذي وفد على أمير حاضرة (الخليفة المتوكل) فمدحه قائلاً:

أنت كالدلو لا عدمناك دلواً من كثير العطايا قليل الذنوبِ
أنت كالكلب في حفاظك للو دَّ كالتيس في قراع الخطوب

فهمّ بعض أعوان الخليفة بقتله، فقال الخليفة: خلّ عنك، فذلك ما وصل إليه علمه، ولقد توسّمت فيه الذكاء، فليقمُ بيننا زمناً، وقد لا نعدم منه شاعراً مجيداً، فما أقام بضع سنين في سعة وبسطة حال، حتى قال الشعر الرقيق ونسب إليه:

International Journal for Scientific Research (IJSR)
المجلة الدولية للبحوث العلمية
Vol. (3), No. (8) August 2024 الإصدار (3)، العدد (8)

وليس أدل من ذلك على أثر المكان على الوعي واللغة، وصياغته للذات بكليتها، أشكالها ولغاتها وفكرها وشعورها. وإن نظرة متوغلة إلى قيمة الجغرافيا في صوغ عناصر هذا الكائن، بدءاً من ملامحه الخارجية طولاً وقصراً، سمرة وبهاءً، ملامحاً وهيئة، تشي بدور الجغرافيا الكبير في تشكيل ذواتنا، وخلق ملامحنا الخارجية والداخلية بأبعادها النفسية والفكرية والشعورية، لهذا الكائن المتشكل – حتماً – من تشكلاتها وأبجدياتها المتضرسة بعنف أو انسيابية.

الصحراء في شعر سيف الرحبي الذاكرة العربية وجفاف الروح:

تشكّل الصحراء فضاءً نصياً عميقاً في قصيدة الرحبي، ينبثق من الذاكرة العربية القديمة بمحمولاتها النفسية والثقافية إضافة إلى استناده إلى المكان الذي ينتمي إليه (الجزيرة العربية) وتشكل الصحراء جزءً أساسياً منه، ولذا فحضور الصحراء الطاغي في نصه يأتي عبر قاموس مكاني يتصف بالجفاف والقسوة من جهة وبالحنين والتداعي والهيام من جهة أخرى، "أحفاد الصحراء المترامية التيه والغياب ربما ورثوا هذه الخاصية أكثر من غيرهم من شعوب الأرض، والظاهرة الطلية في الشعر العربي بمأساويتها وتشظيها تعطي هذه الخاصية قوة ومدى وكذلك الصوفية وشطحها إلى الحلول في المطلق واللامتناهي جسدت نصوصاً مكتنزة بأسرار الحنين. تلك الصحراء، كان العربي يتأرجح في شعاع سرابها وقسوة طبيعتها تأرجحه بين الحياة والموت، في ترحاله الدائم عبر الأخطار الماحقة، متأملاً فناء الأشياء والكائنات في مرايا أطلاله ورسومه الخوالي، وكأنما الأحبة لم يوجدوا على أرض واقعية قط وإنما عبر هذا الغياب القاهر بدوارسه وعلاقات جماله الغارب [1]".

لقد أسند الشاعر نفسه للصحراء في انتماء لأمومتها في ديوان كامل عنوانه بـ "رجل من الربع الخالي" رابطاً روحه وماضيه وحاضره وآتيه بصحراء الربع الخالي التي تسكنه كهاجس وتتوسد ذاكرته رمالاً فتراه يترنم بها في نصوصه، في صوفية مريد أو هيام عاشق متيم. "هكذا تقذف الصحراء أحشاءها تحت شمس لاهبة في الربع الخالي الذي استحال من بقعة جغرافية محدودة إلى كون رمزي يشع بالقسوة والخواء والتيه حيث لم يجد الأبناء من مستقر عدا اللغة والسلوك المحمولين على حرب الأخوة وعلى تخييل العالم والوجود ضمن سياق خراب نفسي واجتماعي خاص" [2].

إن الصحراء بوصفها ذاكرة الجفاف الروحي، وشساعة المكان بما لا يحد؛ فرضت انتقال شاعرية المكان من الخارج إلى الداخل في ذاكرة الشاعرة وروحه المتأججة بالعاطفة، وملأتها بالرمال المتحركة والحرقة

[1] سيف الرحبي - مجلة نزوى - العدد الثالث – يونيه 1995 ص6.
[2] سيف الرحبي، حوار الأمكنة والوجوه – مسقط – دار عمان، ص34.

والخراب والقسوة من جهة وبالشعر والحنين والاتساع، مما جعلها تحضر في نصه حضوراً خاصاً يجعل منها وسناً هادئاً لروحه، وموئلاً للغته.

إن صورة الصحراء في النص الرحبي الشعري تحضر باتساع مهيب في الداخل والخارج في انزياح أنثوي لمدلولاتها وتخييلها، مستمدة طاقاتها الحية من رموز المكان المفعم بالأساطير والغرائبيات، لتتخذ صورة الجسد اللامتناهي للمكان، وللزمن، وللشاعر، وللأنثى في تبادلية للأدوار "في المكان، في الجسد، في المدركات جميعها في الأشياء الميتة، إن الماضي لا يمضي نهائياً بل يعلق بالجسد، بالمكان بتفاصيله ويندس في صميم الحاضر ويواصل في السر العمل، هكذا تستل الكتابة من صميمها ما به تفتح الواقعي على ما غاب منه، وتصبح ضرباً من الترحال في أقاليم المكان في سطوحه وأقاصيه" [3].

إن سيف الرحبي لا يكتفي باستحضار صورة الصحراء بل يعلن انتماءه الكوني والإنساني والشعوري لها، فهو رجل من الربع الخالي، هكذا ينصّب نفسه رمزاً لأبناء الصحراء وأهلها. "وهو حين يحلّق في اللامادي إنما يعلو على أجنحة من الصور، بيان ذلك أن كل معرفة تبدأ من التجربة وأن كل أفكارنا إنما تحاك من الإدراكات الحسية – ولا يمكن أن تحاك من أية مادة أخرى. تلك طبيعة العقل التي لا فكاك منها. وينجم عنها بعد قليل من التأمل، أخطر المشاكل المتعلقة بالهموم الإنسانية الكبرى. لا شيء في العقل لم يدخل بادئ الأمر من سبيل الحواس بوجه حسه وليست حالاتنا الروحية، في متناول التفكير، بمعزل عن ذلك الحسي الآسر، لذلك تعبر عن المجرد في حدود المجسم، ونصوص غير المألوف بواسطة المألوف، ونعبد عيد الحسي بحدود حسية [4].

إن سيف الرحبي "يستعيد أزمنة مضت وأحداثاً ضاعت ويحيا طفولته من جديد وأول حب له، وأول قدح محطم له، وأول حزن محطم من خلال شلال الكلمات" [5] ينثرها كالضوء بتشبثه بخيوط الخارج ومخضوضره بدقة الداخل.

إن نص الرحبي الذي يدبج سريرته الخاصة بالموروث والمكاني والزماني ويرسم مفرداته الخاصة على خريطة النص النثري مبترئاً من كل القيود والإيقاعات.

ولعل احتفاء الشاعر بالصحراء هو احتفاء بالأنثى فهذا الرمز الأنثوي الذي يستند إليه بقوة هو المعادل الأنثوي للجبل الذي مثل الرجل (العماني – العربي) بقسوة المعطيات الجغرافية وحدود الثبات والهيمنة التي حددت له سلفاً ورسمت غيبياً أبعادها الثابتة القاسية بفعل غير معروف وغير محدوداً، أما الصحراء/ الأنثى/ المرأة فهي الأوسع/ الأشمل الأكثر اشتعالاً واتساعاً وبهاءً حارقاً.

[3] محمد لطفي اليوسفي، الشعر وتحرير الكيان، مهرجان الشعر لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، الدورة الثالثة البحرين 1997ص5.
[4] د. مصطفى ناصف. الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت: لبنان، 1983 ص 128- 129.
[5] جبرا إبراهيم جبرا. الفن والحلم والفعل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت – ط2 – 1988، ص11.

إن رمز الصحراء المسيطر كرمزاً ميتافيزيقي بعيداً عن جغرافية الذاكرة هو المرأة، لحنين الشاعر إليها واشتغاله بها وعنها والبحث الدائم ورائها وهي الأحن الأقسى، والأبعد الأقرب، ولعل الرمز يتناوب في حضوره الميتافيزيقي (المرأة) والفيزيقي الصحراء برمالها ووحشتها. ولذا نرى الشاعر يهدي ديوانه (رجل من الربع الخالي) إلى: تلك المرأة الزائغة بالغياب مثل صحراء.

لقد فرض الشاعر العماني الطالع من عمق الصحراء ورمالها المتحركة حضوره وصوته الشعري المتفرد والمتميز وراهن على خصوصية ذلك الحضور والصوت، فاندمجت رؤى الشاعر برؤيا القصيدة الكلية لتأثيث النص بممكنات من المؤثرات البنائية والتشكيلية والصورية والفكرية التي تستثمرها القصيدة في تحقيق الصلة بين النص والمتلقي وهو في حقيقته جزء مهم من بنية النص وقيمه التي تلتقي فيه مختلف الصياغات والاحترافات اللغوية والمفارقات الصورية، والتوازيات اللونية كالتضاد والتقابل والتكثيفات اللغوية والإيقاع الداخلي النفسي.

"لقد اتجهت قصيدة سيف الرحبي – ومنذ بدايتها نحو مناطق أكثر خطورة في عريها وانغراسها في حياة لا غطاء لها من أي نوع كان تاريخي أو أيديولوجي فكري، وأصبحت أقرب إلى ذاتها وحياتها [6]"، لذلك فلا عجب أن نجد الصحراء برمالها وأفعالها وأسماءها تتقافز من بين نصوص الرحبي فهي (الصحراء – الربع الخالي – عروق الشيبة – الرمال – الكثبان – التيه) وتتكرر بشكل لافت حتى لكأن القصيدة قطعة من كبد الصحراء أو حفنة من رماها الرقيقة أو لكأنها أنثى الصحراء المختالة التي تتراقص فوق الرمال.

إن "تجربة الرحبي منطلقة من خصوصية الموروث الشعري الكتابي والشفاهي العماني في عصوره المخلفة وصولاً إلى العصر الحديث، وعبرت عن الموروث البيئي العماني الذي ينبجس فيه غنى واتساع وتنوع قلما نجده في الوطن العربي فعمان تقع على تخوم الربع الخالي حيث تتقاطع الصحراء مع الجبال مع البحار الشاسعة، حيث عاش الرحبي مراهقته مصغياً إلى بنات آوى وعواء الذئاب وأجواء الليل والوحشة حيث ينبجس فيها السمات العامة للمكان وقسوته وجفافه ووعورته، قفره وانقطاعه عن العالم إضافة إلى المنقلب الآخر الذي يكمن في داخله وأعماقه كانعكاس لعلاقة الذات مع الحيز المكاني مما جعل شعره ينهض في جانب كبير منه على وتد المتاهة التي تستشرف التيه في أعماق الإنسان المعاصر وفي رؤاه كما في مخيلته وصراعاته النفسية والوجودية [7].

الصحراء في شعر سيف الرحبي - كما أسلفنا - تأخذ بعدين حقيقي ومتخيل وإذا كان الحقيقي ينبع من المعاش والذاكرة والذاكرة المكانية التي اختزنت بين أرففها شهوة المكان الأول الذي تسلل إليها مع الخلق والحياة وتموضع في لغتها وطل من بين الكلمات بحضور بهي ورشاقة حانية فإن المتخيل يمثل الرمز

[6] سيف الرحبي – د. محمد جابر عباس – جريدة عمان- عدد 7667/ 30 مايو 2002، ص18.
[7] المرجع السابق.

الشعري الذي يسقطه الرحبي من خلال الوعي أو اللاوعي الشعري على جسد الصحراء وذاكرتها الزمانية والمكانية هو استحضار ذلك الرمز من الوجود المكاني لتلبيسه بغلالات نفسية واسقاطات داخلية وخارجية تتماهى والشاعر الذي أدرك مكامن الرمز ومكايده وعرف جروف اللغة ومخاتلها.

"الشاعر يلتمس خبرته في بعض المحسوسات الخارجية التي تكتسب من خلال القصيدة التي ينشئها عالماً خاصاً، وربما لا ينسى الشاعر هذا العالم الشعري الذي عكف عليه مرة أو مرات، وربما عاود ارتياده ليخلق صوراً بالرجوع إليه أكثر مما يخلقها بالرجوع إلى العالم الحقيقي، ومن ثم ينتقل من الانعكاسات المباشرة للدنيا الواقعية إلى صور ثانية تعد مزاجاً من الواقع والشعر، فالرمزان في السياق وأياه معاً، وهو البنية الحية التي التوقف عندها وتأملها لذاتها قبل أن تتجاور إلى غيرها) [8].

الصحراء الرمز هنا هي الجفاف والشظف والرقة والاتساع والمرآة كل ذلك في المخزون الفكري والنفسي للشاعر المتشرب لظلال الصحراء ولحرقة المكان وجحيمية الخارج ونضوبه.

عروق الشيبة [9]* هكذا يسميها البدو، ذئاب الصحراء الذين ما زالت بقاياهم تجتاز العصور الضوئية فوق رمالها ... وهكذا يسميها بعدهم، الرحالة القليلون الذين قذفت بهم المغامرة إلى مرابض هذا الوحش العتيد، مركز غضب سحيق في هذا المدى المترامي للسراب والبروق المراوغة، ومنعقد لواء العواصف لحظة هيجان الصحراء الصحراء... ويمكنك أن تشاهد على مقربة من حطام الشهب، وهياكل العربات والفرائس، التحولات الرهيبة للرمال وهي تبتلع قطعان الجمال، وتحولات الجن وهذيانات السحرة ...

وعلى ضفاف النجم الأول الذي كان يسري الأجداد على هديه، قبائل وأفخاذ وحمولات، ضاع دليل القافلة، وشوهد صريعا قرب جثة نسر...

هكذا وسط هذا العالم، وبين كثبان هاوياته المطلة على سماء مقفرة، بكماء، تقيم الحياة قسمتها الأخيرة وتستمر شتاءات الجراد في التفقيس والانتشار والهلاك [10]...

الشاعر في النص الذي انفلت من الشكل الجسدي للمقطوعات الشعرية بتقسيماتها الخاصة والخاضعة للمزاج النفسي والفكري للشاعر -ربما أيضاً هنا لمزاج الشاعر النفسي والفكري – يرسم بورتريه للصحراء أو لأوعر منطقة في الربع الخالي وأخطرها – كما يعرفها في الهامش، وهو يستعيد هنا تسمية البدو للصحراء الذين يلصقهم بها بالإضافة بعد أن نعتهم بصفات المخاتلة والقسوة (ذئاب)، أولئك الذين ما زالت (باستخدام فعل الاستمرار) بقاياهم تجتاز العصور الضوئية فوق رمالها، الصورة المتحركة التي

[8] د. مصطفى ناصف. الصورة الأدبية. دار الأندلس – بيروت: لبنان، 1983 ص153-155.
[9] من أوعر مناطق الربع الخالي وأخطرها.
[10] سيف الرحبي – رجل من الربع الخالي.

أرادها سيف لأولئك البدو ذئاب الصحراء الذين بدأوا بالتناقص بفعل المدينة ولكن بعضهم لا زالوا يجتازون العصور الضوئية، والرحالة الذين قذفت بهم المغامرة إلى مرابض هذا الوحش العتيد، الصحراء هنا هي المكان الطاغ بوحشته والضاج بقسوته الوحشية، وأولئك الرحالة(قذفت) بقسوة الفعل قذف بلا إرادة ولا تحكمية في الفعل إلى مكان هذا الوحش موضع قدمه واستخدام (ماضوية) الفعل هنا دلالة على انتهاء الأمر بالنسبة لهؤلاء الرحالة فما لهم بعد ذلك حيلة إلا الولوج إليها، بل أن الشاعر يرى أن الصحراء هي مركز غضب قديم في المدى الكبير الكون للسراب والبروق التي ينعتها الشاعر بالمراوغة (لأنها تظهر ثم تختفي) بل هي المكان الذي ينعقد فيه اللواء للعواصف حين تهيج الصحراء، ويمعن الشاعر في رسم المشهد بكل قسوته حيث يخاطب الملتقي (بكاف الخطاب) والفعل المضارع كإشراك قسري في المأساة، إن في ذات المكان يمكن للإنسان أن يشاهد قريباً من حطام الشهب وبقايا العربات والجثث المتعفنة، بالقرب من المشهد المضمحل والشاهد بحضوره الهالك والماضوي، بينما ثمة فعل ديناميكي متحرك حاضر مشاهد في لحظته حيث تحولات الرمال الرهيبة بقوتها وجبروتها وهي تبتلع كوحش ضار قطعان الجمال بكل قسوة وعنف أنه جمع الجمع (قطعان) دلالة على قسوة الصحراء وجبروتها ساعة التحولات التي يطيب للشاعر نعتها (بالرهيبة) تفظيعاً لها ولفعلها القاسي بل أن هذا الفعل يتجاوز الأشياء الحقيقية (الجمال) إلى المجردات والأوهام إعمالا للمخيلة المكانية (تحولات الجن وهذيان السحرة) وكأن هذا الوحش كما وصفه الرحبي قد تجاوز سلطة الحقيقي إلى اللا حقيقي والعادي (في قدراته) إلى اللاعادي في كونه خارقاً، ويستمر الشاعر في رسم صورته الفيزيقية /الميتافيزيقية للصحراء متخذاً بؤرة ضوئية (لدليل القافلة) هذا الذي آخى هذا الوحش وسار في محاذاة الانسياب الضوئي لنهر الضوء الذي ترسله النجوم كهداية للأجداد المرتحلين قبائلاً وأفخاذاً "ككل وكجزء من الكل" وحمولات من الحياة "مادية ومعنوية" من صداماتها وإحباطاتها، لكن هذا الدليل ضاع وانتهى حيث عشق وأحب بل وكأبرز عناصرها مات ميتة النسر الشامخة.

بل بكل شموخ "شوهد" بتغييب الفاعل عن عمدية لإعطاء الحدث أكبر عدد من الفاعلين أو لنخبة خاصة من الفاعلين للمشاهدة، شوهد هذا الدليل بالقرب من جثة نسر مع ما لهذه الجثة النسرية من دلالات (الشموخ/ العزة/ الوحدة) ويلذ للرحبي أن يقدم فلسفته الخاصة مستشفاً لها من كل هذه القسوة بل دامجاً للمشهد القريب المحدود بالمشهد الأكبر اللامحدود كأن هذه الصحراء هي هذا العالم بكثبان هاوياته المبتلعة للبشر بكل قسوة وعنف والمطلة على سماء لا تحوي أي حنان أو رأفة غير قادرة على الكلام، وكأن هذا هو الميزان الذي تقيم الحياة سيرورة عدالتها عليه ومع ذلك تبقى شتاءات الجراد (دلالة على هذا العالم بكل هشاشته وبرودته وعفونته)، بل وتستمر في فعل عتيد محرر من ربقة القدرية والسيرورة الحتمية بلا وعي مسبق أو تخطيط مقصود – الجراد رمز للبشر في خفتهم وحمقهم ونزوعهم نحو عادية الفعل (التفقيس/ الانتشار/ الهلاك) الفعل الحيواني السائد.

ولادة + حياة = موت

وربما هكذا

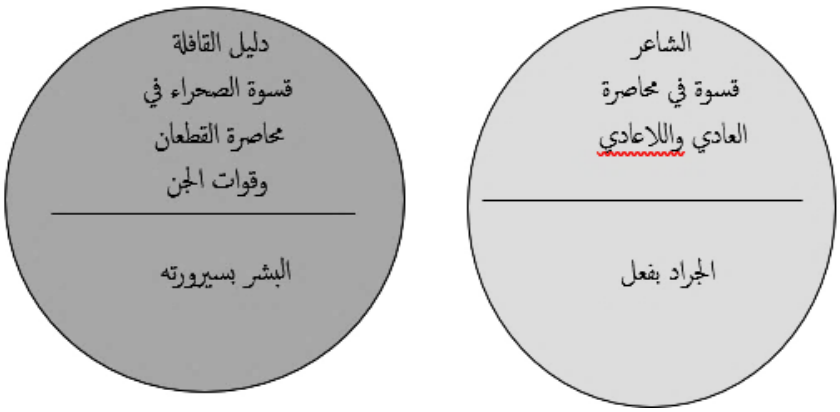

إن تحليل شكل النص يقودنا لصور تين وازى بينهما الشاعر:

إن الشاعر في صورة المكانية ليس عدمياً أو عبثياً بل هو اسقاطياً لفعل مكاني متخيل أو مستنقذ من الذاكرة والطبيعة على فعل معاش وعلى نظرة أيديولوجية لهذه الحياة والكون الذي يحيا فيه الشاعر غريباً كنسر وحيد.

فيض الصحراء

عجائز الطرقات

يستجدون بسمة عابر

في وجوههم مرايانا

وفي حدبة العمر

International Journal for Scientific Research, London Vol (3), No (8), 2024
https://doi.org/10.59992/IJSR.2024.v3n8p14 E-ISSN 2755-3418

أيامهم معلقة في ذكرى

كسنام يواجه فيض الصحراء

في العربات وعلى المصاطب والممرات

يتجمعون

تتبعهم بروق مخمدة وعواء مسحوق [11]

إن قصيدة الرحبي ذات وحدة عضوية أي ذات "كيان حي نام ونموها تدرجي عفوي يشبه نمو الأجسام الحية وهو ناشئ عن قوة مركزية داخلية تصدر من باطن الكائن الحي، وتتحرك في اتجاه الأطراف والأعضاء من خلال دفعات تلّون النواحي والأجزاء بلون واحد وهذا يعني كذلك إنها وحدة وظيفية، فلكل عنصر وظيفة غير منفصلة من وظائف العناصر الأخرى ينجم عنها تكامل العمل الفني ونموه وتوضيحه وهي وحدة تركيبية ناجمة عن تعدد العناصر والمستويات والأبعاد وذات علاقات متفاعلة تبث تجربة ما وتوحي بأمثالها ولذلك تحتاج إلى الحركة والصراع" [12].

ففي هذا النص يستحضر الشاعر من الواقع المعاش صورة ليسبغ عليها من ذاكرته المكانية "فيض الصحراء" فعجائز الطرقات الذين يستجدون بسمة من عابر والتي نرى في وجوههم غدنا كالمرايا الصادقة والتي في إنحناءاتهم ما مضى من أيامهم كل ذلك المشهد وتلك الحدبة على ظهورهم استعادت من مخيلة الشاعر صور المخلوق الصحراوي (الجمل) بسنامه الذي يختزن فيه الماء ليواجه الصحراء، ويوازن الشاعر بين الصورتين حيث هؤلاء الكبار الذين يتجمعون في الوديان وعلى المصاطب والممرات وهي صورة مدنية يزاوج الشاعر بينها وبين صورة صحراوية وهي البروق المخمدة والخواء المسحوق في الرمال وكأن هذا العمر ينتقل بنا من الجمال والخضرة (الشباب) إلى القسوة والنهاية (حيث الصحراء).

إن الصحراء في نص الرحبي تمثل فكرة فلسفية يبثها الشاعر بين ثنيات النص وممكنات يسبغها على العمر في استحضار صور متضادة يمزجهما ليعبر عن قسوة الصحراء التي تسكن ذاكرته ويعلن صورها على كل ما يحيط به فيزيقيا أو ميتافيزيقيا كفعل مرادف للجفاف والقسوة والهلاك، بل كأنه يستقرأ تلك الذاكرة المكانية ليوجعنا بكل هذا الحضور ودلالاته الطاغية بالقسوة والعنف والجفاف.

الغابة في شعر سيف الرحبي دلالات رمزية وقلق وجودي:

ما أن تدير عينيك في نصوص سيف الرحبي حتى تطل الغابة بكل بهائها وحضورها ومعطياتها المكانية، ورموزها ودلالات تلك الرموز، الغابة بكل سطوة المكان ودلالات ذلك البعد المكاني "كتعبير عن الرؤية

[11] سيف الرحبي – رجل من الربع الخالي، ص43.
[12] د. خليل الموسى، وحدة القصيدة في النقد العربي الحديث منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1994، ص20-21.

الشخصية للكاتب في مناخات شعرية بلغة شعرية حقيقية، لغة تتوسل التوقعات اللامحدودة.. الغوص عميقاً في بحار اللغة والاكتشاف للصوت الشخصي فيها) [13].

وتتجذر رموز الغابة في شعر سيف الرحبي منذ أول مجموعاته الشعرية إلى آخر ما كتبه كتأصيل حقيقي لفكرة يستحضرها ويريد تأكيد ذلك الحضور بقوة أكبر مع كل مجموعة شعرية عن وعي /أو لا وعي لذلك الحضور المكاني المرعب، كأن الشاعر يستأنس باستحضار تلك الصورة القريبة /البعيدة عن ذاكرة اللحظة مستنداً بقوة إلى ماضوية الوجود الإنساني وربما ماهيته في كثير من الأحيان.

الشاعر يطل من خلال "الماضي السحيق غالباً، والممتد إلى الحاضر بعمق حضوره وقوته الغيبية، ماضي الجماعة والأجداد والسلالات وماضي المكان والجغرافيا على حد سواء، ويعلن منذ البداية نفساً استرجاعياً لا يخفى انكساره وهو يقف وجها لوجه مع الغياب" [14].

إن استحضار سيف الرحبي للغابة برموزها المختلفة والطاغية هي محاولة إسقاط تلك الرموز على الواقع المعاش والحياتي وتلبيس المحيط العام بكل قسوته وخيباته بتلك الرموز ذات الدلالات البعيدة والمشفرة كتأثر ثقافي وربما إعجاب حقيقي بثقافة الرمز الذي كوّن رافد أساسي في ثقافة المجتمع العربي من خلال تشبع الذاكرة العربية وبإعجاب كامن بـ "كليلة ودمنة".

إن نص سيف الرحبي يأخذ إمداداته من أمكنة مختلفة تنطلق من نفس أثثها المكان برهبة ما ووحشة ورعب حيث "المطارح السلالية والمكانية الضاغطة على الذهن والأعصاب والجسد تستفز المخيلة لتخوض معها نوعاً من تجربة قاسية ذات سمة صدامية، بمعنى آخر هناك نوع من المساءلة القاسية لها عبر الشعر، وأيضاً نوعاً من التطهر من استحواذها وسطوتها على الذهن والمخيلة المتعبين بالضرورة من ثقل هذا التاريخ وهذه السلالة وهذه الأماكن التي توغل في قسوتها دائماً" [15].

تظهر باستنفار حيوانات ذهنية في الذاكرة المشبعة بالألم والوحشة، حيوانات يعلّق عليها قسوة الفعل الحياتي المعاش وقسوة المعرفة الجحيمية التي تظهر الذات البشرية بكل انديا حاتها في عالم الشر والجريمة والعنف واللاخلقي حد حيوانية الفعل أو زعزعة الرصيد القيمي للإنسانية بمعدلاتها القيمية والروحية، وذات الشاعر المشرية بالجمال والروحانية كصوفي عتيق، والمتضرجة في محراب الحب والعشق تتضوع كل هذا الحب ليشمل الوجود ولكنها في النهاية صدمة الحدث، صدمة الذاكرة الطفلة بالوحشة الغامرة في المكان ومن يحويه، صدمة الرعب المسيطرة على مجتمع غابوي كما يصفه الرحبي

[13] سيف الرحبي، الخليج الثقافي، العدد 3319 – 30 مايو 1988.
[14] سامر أبو هواش – "حوار مع سيف الرحبي"، المستقبل، الاثنين 9 اغسطس 1999، ص16.
[15] سيف الرحبي – المرجع السابق.

كانسلاخ منه أو هروب إليه في تصغير وحشيته عن ما يحدث في عالم البشر متأسياً في ذلك بالشنفرى في انتساب لهذا الجد الشعري الصعلوك.

ولا تكاد قصيدة طويلة أو قصيرة إلا وتطل الغابة منها برأسها كأنها تطل من رأس الرحبي المحمل بظلال هذه الغابة، الغابة البشرية أو الوحشة كمعادل لفظي آخر لهذه الغابة.

"إن الرؤية المأسوية نابعة من ظروف الواقع العربي ومعطياته وصدق اليأس أو اليأس الصادق والعميق في التعاطي مع المسائل الكبرى، وبالتأكيد أن هذا الاستقرار وهذا السفر في المجهول يطوّح بالشاعر أو الكاتب دائماً نحو الطفولة، إن انحطاط الأوضاع العربية وانحطاط القيم والأخلاق في بعض بلداننا عكسا نفسيهما بصورة شرسة على واقع المثقفين وهذه الذئبية في العلاقات ربما ازدادت شراسة بحكم قسوة المنافي وقسوة المعيش وبحكم الأوهام الكبيرة التي لا يتحقق منها إلا القليل، وبالتأكيد أن هذا المسار الحياتي يولد هذه السيكولوجية الافتراسية [16]".

إن هذا الحضور المفترس للذات الشفافة يدفعها للجوء إلى الطبيعة إلى الطفولة بكل انحناءاتها البريئة وإلى استحداث صور خاصة بالشاعر وهي الغابة يخطط لرموزها ويفصّلهم على منوال الشريعة التي تؤطر هذا المجتمع اللاإنساني بكل تناقضاته بين الجمال والوحشية، من الطيور واليمامة والنسر حيث معادل الجمال والحرية إلى الذئاب والثعالب معادلات المكر والخداع والوحشية إلى النمر الجريحة كإكبار لهذه الأنثى القوية بضعف والضعيفة بقوة.

"هذا الاضطراب الإنساني والفوضى الشاملة التي تعم العالم وتؤدي به إلى الهاوية نتيجة للحروب والاستلابات والنفي والغربة التي امتدت إلى حياة الناس كان لابد للشاعر في استجلاء هذا الزيف والتزوير الذي تقدمه السلطات الحاكمة في كل مكان من عالمنا الأرضي بعد أن ترك الشر بصماته واضحة وأليمة على الحياة والأحياء والشعراء والملائكة [17]".

"مازوشية"

تخلطين الصباحات مع بعضها

وتؤجلين النزهات

ربما لغد لا يأتي

أنت القادمة من جهة مشطورة

[16] سيف الرحبي – الشرق الأوسط – عدد 3964، الخميس 1989/10/5.
[17] د. محمود جابر عباس، سيف الرحبي - ملحق عمان الثقافي – عدد 7667_ 30 مايو 2002ص18.

بالغضب

تخلعين خرابك فوق رأسي

وأجد ذلك عذبا

تجزين عشبة الراعي وتطعمينها

لثعالب الريح

كلماتك التي تطارد فجراً في سهوب

بعيدة، في سهوب مليئة بنعاس

الذئاب.

أنا الشديد الإيمان بما تقولين

الشديد الكفر بما يقوله غيرك

أنا الأكثر عناداً من نابليون.

تسافرين إلى بلدان لم تصلها أوهام الطير

وتتركينني أفترس أرصفة العالم

بحثاً عن إشراقة لمسة [18].

النص لدى سيف الرحبي بوتقة تنصهر فيها ملامح الداخل المشرّب بالحزن والمشرئب نحو المكان والمرأة، فهذه المرأة المازوشيه تخلط الصباحات مع بعضها كأنها تمزج القهوة أو الحساء كفعل أنثوي مؤثثا بالسكنى، ويمضي في وصفها ضافياً عليها نعوته الخاصة، فامرأة الشاعر قادمة من جهة مشطورة بالغضب، ليست القطة الوديعة أو السوسنة الحسناء، بل يتمادى في الفعل الراسم لأنوثة خاصة جداً ممتلئة بالألم فهي تخلع خرابها فوق رأسه كقبعتها أو ردائها، والشاعر المتلذذ بكل هذا العنف الأنثوي يستحضر صورة الغابة بأبعادها المختلفة فها هي امرأته تجز عشبة الراعي التي يريدها لأغنامه بكل وداعتها لتطعمها لثعالب الريح مخاتلة الحياة والشاعر والذات هكذا يريد الرحبي أنثاه قوية مخاتلة محملة بالهزائم حتى الوجع الخالق.

[18] سيف الرحبي – رأس المسافر - سلطنة عمان - مسقط -1988، المطبعة الشرقية ومكتبتها، ص42-43.

بل يوغل في رسم صورة (مازوشيته) ليعلن أن كلماتها كصبح جميل تطارد الفجر لتعلن نهايته بكل جمال وقسوة الشمس وعلى مرامي بعيدة لسهوب ووهاد بعيدة ملأي بوحشية وخبث ومخاتلة الذئاب الناعسة التي لم تستعد تماما لرحلة الافتراس، هذه الصورة التي يريدها الرحبي لامرأته في استحضار واضح للغابة بعشبها وراعيها وثعالبها وذئابها، يعمقها حين يستمر في رسم مشهد أنثاه التي يعشقها حد الإيمان بما تقول والكفر بما يقوله غيرها لكنها الغائبة دائماً، ربما لأنها الحاضرة فقط في سراديب المخيلة.. المسافرة إلى بلدان لم تحلم الطيور المهاجرة في لحظة وهم بالسفر إليها، أي دلالة تحمل هذه الصورة للبعد المكاني القصي حتى عن أحلام الطيور وأي روعة بداخل هذا النسج المفتون بالغابة حتى الافتراس، فالشاعر وحيد تتركه أنثاه يفترس - بقسوة الوحوش الجائعة - أرصفة العالم باحثاً عن فرحة مشرقة تبعثها لمسة من تلك المرأة المختالة بقسوة الأنثى وجمالها.

إن "كل شاعر ومنذ أزمنة سحيقة بالضرورة يمتلك عناصر أدوات ورؤية يبدع من خلالها عالمه الشعري، عناصر الموضوع، فطرة المخيلة وسحرها الغريب نظرته الخاصة للأشياء، كان الشاعر البدوي الذي يفترس مشهد الصحراء اللا نهائي يسعى إلى ترويضه عبر التحويل الشعري ليعيد شيئاً من التوازن للخلل القائم، إن هناك افتراساً متبادلاً بين الشاعر والمشهد المحيط تلعب فيه المخيلة والوجدان الدور الحاسم [19].

وهكذا سيف الرحبي له أدواته ورؤاه الإبداعية ونظرته الخاصة للأشياء وله مخيلة خاصة جداً استقى مشاهدها ولغتها وحضورها من الجغرافيا التي تسكنه والمكان الذي يستند إليه بقوة في شعريته.

"ذكرى الحاضر"

وحيداً، وخلف الجبال البعيدة في الذكرى

.... سادراً أرقب المغيب

هذا الدم المنساب على أجنحة طائر

ثعباناً يفترس النهار بعينيه الدامعتين بالسواد.

وخلف الأكمة يلعب النمر مع صغاره، مضيئاً

طلائع هذا الليل القادم

بمخالب أكثر حناناً من جسد امرأة.

وحيداً من غير أمل

[19] سيف الرحبي – حوار الأمكنة والوجوه.

ومن غير رغبة

هكذا ... هكذا

حتى اختفى مع سكان مدينة

غرقت في البحر

أو اختفى في كأس [20].

النص الجارح اللغة والذاكرة والذي يعلّق فيه الرحبي حزنه على اللحن الغابوي فالشاعر الوحيد الذي يسرح بذاكرته للوراء حيث الجبال وهو يرقب المغيب ويخلق صورته الغابوية حيث الشفق (دم منساب على أجنحة طائر) حيث العلو والتداخلات اللونية والتدرجات الجحيمية لذلك الشفق استدعى دم على الجناح من مخيلة الرحبي وذاكرته الشعرية، وتتعمحوله، بل لترسم صورة أكثر قسوة وعنفاً فهذا الدم المنساب على جناح الطائر هو دم النهار الذي افترسه المساء بقسوة ودمعت عينيه الوحشية سواداً هو الليل، بينما خلف التلة النمر يلعب مع صغاره مضيئاً طلائع هذا الليل القاتم، إنها سوريالية الصورة وغرائبية الاستحضار الفني حتى القسوة، فماذا يريد الرحبي بهذا النمر الذي يلاعب صغاره بمخالب أكثر حناناً من جسد امرأة، هل المجهول أو الغيب أو صورة لكل إنسان على هذه البسيطة كان بشعاً نهاراً صار أليفاً حتى الحنان ليلاً، غير أن الشاعر في وحدته وحيداً لا يألوا شيء ولا يرغب في شيء وبلا تعليل مكرراً كلمة "هكذا" كحالية حدث برفض تبريره أو تعليله أو حتى الحديث حوله، بل يقرر حقيقة إنسانية هكذا – هكذا حتى يذوب مع سكان مدينة ساحلية بكل هرجها ومرجها أو يختفي وعقله في كأس يغيّب الحواس والعقل سر الشقاء البشري.

إن طفولة الرحبي المكانية الطاغية بكل أشكال الرعب والغابوية "وجهت بشكل غير واع مساره الإبداعي وفجرت في بؤر نصوصه كل ألوان الشجن والحزن والرعب وحولت النبرة الشعرية والأداء التعبيري في بنية قصيدته نحو اختراق هذه الحجب التي تتحول عنده إلى منطقة رمزية مأهولة تشع بالعدم البشري على المستوى الكوني كله فالرموز والشخصيات والأقنعة والأمكنة المتوالدة عند الشاعر في مناطق جغرافية ومكانية تلعب دورا حاسما في هذه الشمولية وهذه التجربة [21]".

والآن..

أقف فوق أقصى مراحل النسيان

حيث الجبل والذئب ينتحبان بأفظع الذكريات

[20] سيف الرحبي – رجل من الربع الخالي، ص15.
[21] د. محمود جابر عباس – مرجع سابق.

والأغاني تصعد من أفواه بنات آوى

مطرزة بالنجوم [22].

يدفع الشاعر ماضيه ومستقبله في لحظة حاضرة صارخاً والآن معلناً هدوء مشواره واقفاً على علو شاهق من النسيان، حيث يلمح في كل ذلك الاستنفار لحالة الغياب المرغوب والذاكرة المهدهدة بأغاني النسيان، يلمح الجبل والذئب ينتحبان بأبشع الذكريات كلحن كربلائي حزين تسانده جوقة بنات آوى وهي تغني اللحن الأوبرالي لأغنيات راقية متمتمة بالنور.

ذاكرة يحاول الشاعر التبرؤ منها، والتفلت من ربقتها، والانسلاخ من هيمنتها على روحه التي ارتعشت كعصفور في هذا المجتمع الغابوي البشع حين يعلن إصغائه لنحيب الجبل والذئب في ذاكرته ولأغنيات تستثير فيه كل رغبات النسيان، والرغبة في الصمت تلك الأغنيات القديمة المشغولة بالنجوم والضوء، كمنديل امرأة أحبها، و ترددها بنات آوى، إننا حين تستقرأ الذاكرة الغابوية في شعر سيف الرحبي نجدها متعددة الروح والحضور والوحشة والخوف والفزع لكننا نجد لها نميز الصورة وخصوصية الهاجس الشعري وتفرد صوته الممزوج بالوحشة والأنين في عصر المدنية والصور الجاهزة والقوالب المحددة سلفا وهنا خصوصية الصوت الشعري الرحبي وروعته.

المراجع

1. أبو هواش، سامر "حوار مع سيف الرحبي"، المستقبل، الاثنين 9 اغسطس 1999.
2. جبرا، إبراهيم جبرا. الفن والحلم والفعل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت. ط2. 1988.
3. الرحبي، سيف، نورسة الجنون. دار المدى. دمشق، 1981.
4. الرحبي، سيف. رأس المسافر - سلطنة عمان - مسقط، المطبعة الشرقية ومكتبتها. 1988.
5. الرحبي، سيف. رجل من الربع الخالي شعر (بيروت 1994).
6. الرحبي، سيف. حوار الأمكنة والوجوه – مسقط مؤسسة عمان للصحافة والنشر والتوزيع 1999.
7. الرحبي، سيف. قوس قزح الصحراء تأملات في الجفاف واللاجدوى. دار الجمل. كولونيا ألمانيا 2002.
8. الرحبي، سيف. مقبرة السلالة، دار الجمل. ألمانيا. كولونيا 2003.

[22] سيف الرحبي – رجل من الربع الخالي، ص40.

9. الرحبي، سيف. مجلة نزوى - العدد الثالث – يونيه 1995.

10.الرحبي، سيف. الخليج الثقافي، العدد 3319 – 30 مايو 1988.

11.الرحبي، سيف. الشرق الأوسط – عدد 3964، الخميس 1989/10/5.

12.الموسى، خليل الموسى، وحدة القصيدة في النقد العربي الحديث منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1994.

13.عباس، محمد جابر عباس. سيف الرحبي – جريدة عمان- عدد 7667/ 30 مايو 2002.

14.ناصف، مصطفى. الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت: لبنان، 1983.

15.نجم، مفيد، الخروج من سيرة المكان إلى ذاكرة اللغة، الكفاح العربي، العدد 2077 (ثقافة) 1998/9/11م.

16.اليوسفي، محمد لطفي، الشعر وتحرير الكائن، مهرجان الشعر لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، الدورة الثالثة البحرين 1997.